لقد تعرض العسكريون منذ البداية لانتقادات الصحافة الصهيونية ، ورغم أن هذه الصحافة لم تكن قادرة على ابعادهم عن مناصبهم ، فانهم لم يتمكنوا من الدفاع عن أنفسهم علانية(٩٧). ان حكومة الظل هذه كانت مصدر ازعاج دائم للعسكريين . وكل دائرة من دوائر الادارة الرسمية جرى استنساخها وتكرارها داخل البعثة الصهيونية . ففي عام ١٩١٩ تقدم القاضي الاميركي والصهيوني براندیس من الحاكم الاداري العام باقتراح يجعل تنفيذ كل سياسة رهنا بالموافقة المسبقة من جانب البعثة الصهيونية . والمعروف ان دائرة الاستخبارات الصهيونية كانت تعمل بنجاح فعال للغاية . ففي صيف ١٩١٧ اكتشفت المخابرات التركية حلقة تجسس صهيونية، هي جماعة النيلي (Nili = تتألف هذه اللفظة من الاحرف الاولى لعبارة في العهد القديم تعريبها : « فصيح اسرائيل لا يكذب ») التي قامت على تنظيمها أسرة آرونسون ، وعملت بصورة وثيقة مع قسم المخابرات التابع للجنرال اللنبي .

لذا ليس هناك ما يدعو الى العجب والاستغراب أن يكون الصهيونيون ما زالوا في وضع يسمح لهم بالوصول الى بعض المعلومات السرية(٩٨). فقد جاء في تقرير بالين ما يلي : « أتى الدكتور وايزمان مؤخرا ، وخلال اجتماعه الى البريجادير — جنرال ووترز — تايلور ، على ذكر وثيقة سرية للغاية هي خطة الدفاع التابعة للجيش الثامن ، لكنه رفض بصورة قاطعة ان يبوح بكيفية حصوله عليها »(٩٩). كما استخلص تقرير لجنة بالين للتحقيق بأن موقف الصهيونيين يطابق الوصف الذي أطلقه أحد الشهود ، الدكتور باترسون ، من المقيمين القدامى في مدينة الخليل ، بقوله انه موقف متعجرف ووقح وينطوي على الاستفزاز والتحريض(١٠٠). وفي تقرير رونالد ستورز نجد ان المسؤولين والضباط البريطانيين شعروا بأنهم « محاصرون من كل جانب وعرضة للتهديد والخطر »(١٠١). كما قال الجنرال بولز في التقرير الذي أوصى بالغاء البعثة ما يلي : « فيتضح مما تقدم ان سلطتي الخاصة وسلطة أي دائرة من دوائر الحكومة ، هما عرضة للتنزي عليهما من قبل اللجنة الصهيونية . واني متأكد انه من المتعذر استمرار هذا الوضع دون أن يسبب ضررا ويوقع الامن العام في معضلات تعم البلاد ، فتجر الحكومة الى مآزق حرجة »(١٠٢).

فلو انه كانت هناك أية مظاهر من الشعور المناوىء للصهيونية أو اليهود ، لكان من المرجح أنها جاءت نتيجة مباشرة للاحتكاك الذي ولده هذا الوضع الشاذ . وبينما أرغم العسكريون على التعامل مع جماعة صهيونية منظمة وملحاحة في انتزاع مطالبها المتشددة ، فانهم بالمقابل لم يعانوا سوى القليل من الصعوبات لدى تعاملهم مع العرب. وعلاوة على ذلك ، فان العاملين في ادارة مناطق العدو المحتلة كانوا أقرب احتمالا الى تعلم العربية من العبرانية ، كما ان البعض منهم ، أمثال ستورز و ويفل ، كانت له خبرة مع العرب اثناء الحرب . ومما قاله ماينرتزهاغن بأن « العربي أحيط بتلك الهالة نفسها من الرومانسية التي درج مسؤولونا في أفريقيا الشرقية على الباسها لقبائل « المازاي » »(١٠٣). حتى أن هوراس صموئيل بالذات أقر بأن العرب أظهروا سجايا وعادات حميدة أفضل مما أظهره اليهود بلا استثناء(١٠٤). وقال آشبي ، وهو الذي آمن بالحركة اليهودية كتعبير روحي رائع ، ما يلي : « ان يسوع المسيح ، لو انه وجد على الاطلاق ، كان يهوديا سوريا ولا يزال هنا في القدس . لكنه لن ينخرط في سلك الخدمة ، بل يكون شاذا ومتعبا ، وشوكة في جنب أية حكومة »(١٠٥). كما شكا متذمرا من عجرفة الحركة الصهيونية السياسية ونزعتها الاستئثارية ، فقال : « ان العربي ليس شديد الذكاء ، لكنه ألطف من اليهود بكثير في نواح عديدة . وهو ليس بالانسان المجدد الى هذا الحد ، لكنه يعوض عن ذلك كله بأنه مثال الجنتلمان المهذب »(١٠٦). ان حماس اليهود الوافدين حديثا الى فلسطين وعدوانيتهم كانا طاغيين الى ابعد الحدود، مما حمل آشبي